المحاضرة 06:

النقد السيميائي

تعد المقاربة السيميائية منعرجا هاما في تاريخ النظرية النقدية، وقد أولى النقاد والباحثون اهتمامهم بالدراسات السيميائية على الصعيدين النظري والتطبيقي، فأسهم ذلك الاهتمام في تطورها واتساع آفاقها. وظهرت لها اتجاهات كثيرة يصعب حصرها في زاوية معينة؛ اتجاهات أسست لها طبيعة السيمياء المتشعبة، التي لا تتوقف عند حدود الدراسات الأدبية فحسب بل تخترق عديد المجالات العلمية والثقافية.

ولقد كان التعدد والاختلاف سببا في ازدهار السيمياء منذ نشأتها وبروزها كعلم يدرس العلامات، ويعالج الظواهر الفكرية والإنسانية من خلال التعامل مع أبعاد المعاني، والتعاطي مع الدلالات المتعددة القابلة للتفسير والتأويل؛ فالعلامات تعبر عن مختلف السلوكيات والأنشطة الحياتية " ذلك لأنه من منظور افتراضي كل ما يقدمه لنا الواقع قابل لأن ينظر إليه بوصفه علامة، سواء تعلق الأمر بشيء واقعي أم بأمر مجرد"

مفهوم العلامة:

رغم اختلاف الباحثين في تحديد مفهوم العلامة ومكوناتها إلا أنها "ظلت راسخة كشيء مادي يظهر أو يدل على شيء آخر ذهني، وهي مرتبطة بقصد إنساني للاتصال، وتتكون من نسيج مركب من المعاني والدلالات والتصورات التي يمكن رصد أنظمتها وقواعدها لتحليلها وتفسيرها" ويشترط أثناء عملية الاتصال الاتفاق بين باث العلامة ومستقبلها على القواعد والشفرات، بحيث يكون الطرفان ملمين بالسياق الثقافي والنظام اللغوي/ غير اللغوي الذي تستند إليه العلامة.

لا تقتصر العلامة على الجانب اللغوي فحسب، بل تمثل أيضا الجانب غير اللغوي لذلك يمكن الحديث عن نوعين من العلامات:

1- **العلامات اللغوية**: تتمثل في النصوص اللغوية كالأدب بمختلف أجناسه؛ رواية،

قصة شعر، مسرحية .... الخ.

2- **العلامات غير اللغوية**: تندرج ضمنها النصوص البصرية والفنون الحركية، الرسوم، الأزياء الأطعمة، إشارات المرور..... إلخ.

النشأة والتطور:

يؤرخ لمرحلة ظهور ونشأة علم العلامات بإرجاعها إلى النصف الثاني من القرن العشرين؛ حيث شهدت تلك الفترة علما يبحث "في أنظمة العلامة أيا كان مصدرها لغويا كان أو سننيا أو مؤشريا". وقد بشر به كل من عالم اللغة الفرنسي فردينان دي سوسير (F.de soussure) (1913- 1957)، والفيلسوف الأمريكي شارل سندرس بيرس (C.S peirce) (1839-1914) في مرحلة زمنية متقاربة نسبيا. فعدّ عملها "الإطار المرجعي الأساسي لعلم العلامات".

تزعّم كل من دي سوسير وبيرس مدرستين مختلفتين في المنطلقات والأسس:

1- **المدرسة الفرنسية:**

التي تتبنى مصطلح السيميولوجيا Sémiologie بزعامة سوسير، الذي أعلن عن هذا العلم في كتابه "محاضرات في الألسنية العامة Cours de Linguistique Générale" قائلا: "يمكننا تصور علم يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، وهو يشكل جانبا من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي من علم النفس العام، اننا ندعوه بالأعراضية Sémiologie(...) وما اللسانيات إلا جزء من هذا العلم العام ". وقد جعل سوسير

العلامة ذات "كيان ثنائي يتكون من وجهين" هما:

- الدال Signifiant
- المدلول Signifié

حسب رأي سوسير لا يمكن تصور علامة دون هذين الطرفين، لأن مثل العلامة "مثل الورقة التي لا يمكن قطع إحدى صفحتيها دون قطع الأخرى". وقد حصر -عالم اللغة- اهتمامه على العلامة اللغوية فقط، حيث رأى بأن اللسانيات جزء من علم العلامات.

وهي رؤية قلبها الباحث الفرنسي رولان بارت R. Barthes ؛ حين قال بأنه "يجب منذ الآن تقبل إمكانية قلب الاقتراح الصوسيري: ليست اللسنيات جزءا، ولو مفضلا، من علم الأدلة العام، ولكن الجزء هو علم الأدلة، باعتباره، فرعا من اللسنيات: وبالضبط ذلك القسم الذي سيتحمل على عاتقه كبريات الوحدات الخطابية الدالة؛ وبهذه الكيفية تبرز وحدة البحوث الجارية اليوم في علم الإناسة، والاجتماع، والتحليل النفسي، والأسلوبية، حول مفهوم الدلالة". حيث يوضح المقطع رؤية بارت التي تنفي إمكانية التعبير عن العلامات غير اللغوية خارج إطار اللغة.

ورغم أنه يمكننا النظر من الوجهة المنطقية "إلى اللسانيات بوصفها جزءا من علم العلامات العام، فالعلامة اللغوية ليست سوى جزء بسيط من مجموع العلامات المختلفة والمتنوعة التي تقترب منها السيميولوجيا، فثمة أنماط أخرى من العلامات التي تكون أنظمة من التواصل مثل: العلامات الشمّية والعلامات اللمسية والذوقية والإشارية أو الإيمائية وكذلك العلامات الإيقونية، والعلامات السمعية والسمعية-البصرية (التلفزيون= حضارة الصورة)، غير أن هذه العلامات تلوذ بالصمت ما لم تغذها العلامة اللغوية بالكلام. فالعلامة الأيقونية لا تتحقق من مستوى الإمكان إلى مستوى الفعل إلا عبر اللغة".

ويمكن القول إن القلب الذي مارسه بارت على الطرح السوسيري لا يعني أبدا خروجه عن اللسانيات البنيوية؛ لأن الأخيرة كانت مصدرا أساسيا تغذت عليه أبحاثه السيميائية.

2- المدرسة الأمريكية:

تتبنى المدرسة الأمريكية مصطلح السيميوطيقا Sémiotics بزعامة بيرس الذي كانت نظرته أوسع مجالا، فرأى بأن المنطق بمفهومه العام ليس " إلا اسما آخر للسيميوطيقا". وقد جعل الفيلسوف الأمريكي نظام العلامة ثلاثيا مكونا من ثلاثة أركان:

1- العلامة بحد ذاتها/ المصورة Representamen.
2- الموضوع Objet.
3- التعبير / المفسرة Interprétant.

فالعلامة –حسب رأيه- "شيء ما يحل محل شيء ما بالنسبة لشخص ما من زاوية ما، أي أنها تخلق في ذهن هذا الشخص علامة معادلة أو علامة أكثر تطورا". كما حدد ثلاثة أنواع لها (العلامة):

1- العلامة الأيقونية Icon: تقوم على مبدأ المشابهة.
2- العلامة المؤشرية Index: تقوم على مبدأ السببية.
3- العلامة الرمزية Symbole: تقوم على مبدأ "المجاورة المتواضع عليها" (العرفية غير المعللة).

لم يقف بيرس عند حدود العلامة اللغوية بل تجاوزها إلى العلامة غير اللغوية، وبذلك كانت نظرته للعلامة أكثر شمولية؛ حيث وسع مجالها لتشمل "كافة مناحي الحياة".

وتجدر الإشارة إلى أن كلا المصطلحين الفرنسي Sémiologie ، والأمريكي Semiotics "مهما كان بينهما من اختلافات دلالية" قد استخدما كمترادفين يحملان المعنى نفسه، ورغم اتحادهما في مصطلح واحد (Sémiotique) الذي استقرت عليه الجمعية الدولية السيميائية المنعقدة في فرنسا سنة 1969، إلا أن بعض الباحثين استمر في استخدام المصطلحين على اعتبار ترادفهما في المعنى؛ حيث تهتم السيميولوجيا بالمجال النظري، والسيميوطيقا بالجانب التطبيقي.

أهم الأعلام:

ورغم اختلاف المنطلقات الفكرية عند كل من سوسير وبيرس، إلا أن جهودهما قد فتحت المجال لبروز العديد من الاتجاهات التي وسعت وطورت البحث السيميائي؛ فكان المحوران السيميائيان المنطقي الفلسفي، والنحوي اللساني "أساسا متينا قامت عليه السيميائية الحديثة". فظهرت في الساحة النقدية عدة أسماء لفلاسفة، ونقاد تناولوا الدرس السيميائي برؤى مختلفة، فأسهموا في بلورته، وإثراء إجراءاته منهم:

رولان بارت R. Barthes، جورج مونان G. Mounin، أندري مارتيني A. Martini، يوري لوتمان Y. Lotman، أمبرتو إيكو U. Ico، بنفنيست Benveniste، قريماص Greimas، جوليا كريستيفا J. Kristiva، ريفاتير Riffatere...

وغيرهم كثيرون –لا يتسع المقام لذكر جميع أسمائهم- أسهموا في تشكيل "تيارات سيميائية متمايزة، ومتعايشة ضمن هذه الإمبراطورية العلامية".

اتجاهات السيميائية:

ويمكن اختزال أبرز الجهود السيميائية في ثلاث اتجاهات (سيمياء التواصل، سيمياء الدلالة، سيمياء الثقافة):

1- **سيمياء التواصل:** (جورج مونان، أندري مارتيني، بريتو J.prieto...)

يقوم هذا الاتجاه على مبدأ التواصل سواء كان لسانيا (لغوي)، أو غير لساني (غير لغوي)؛ حيث يرى رواده أن للعلامة ثلاث مكونات:

دال + مدلول + وظيفة قصدية.

2- **سيمياء الدلالة:**

تجاوز رواد هذا الاتجاه، وعلى رأسهم بارت ما زعمه أصحاب اتجاه سيمياء التواصل من ضرورة توفر القصدية في العلامة؛ فاهتموا بالبعد الدلالي للعلامات غير المقصودة بحيث لم تعد القصدية عنصرا مهما في إنتاج الدلالة، وحافظوا على الكيان الثنائي للعلامة:

دال + مدلول.

3- **سيمياء الثقافة:** (يوري لوتمان، أمبرتو إيكو، إيفانوف Ivanov...)

يقوم هذا الاتجاه على مبدأ دراسة العلامة من خلال وضعها في إطارها الاجتماعي، ودراستها وفق اعتبارات ثقافية، وذلك " من منطلق أن اللغة نتاج عملية تواصل بين أفراد المجتمع، وهي جزء من وحدة كلية هي الثقافة "، وعلى هذا الأساس تتكون العلامة من:

دال + مدلول + مرجع ثقافي.

آليات القراءة السيميائية:

إن انتشار السيمياء في شتى المعارف، واختراقها لكافة الحقول – كما سبق الذكر- جعل منها مجالا واسعا "لا تملك أي معالجة له أن تكون شاملة" فهي اتجاه نقدي يمتلك العديد من الآليات التي تجعله مؤهلا لمقاربة مختلف النصوص.

كما أنها من "أكثر مناهج الفكر النقدي قابلية لأن تنتشر في دوائر الأدب والفن والثقافة في إطارها الكلي الشامل"، فلم تنحصر القراءة السيميائية في مقاربة الأدب بمختلف أجناسه فحسب؛ بل عنيت أيضا بالاشتغال على الثقافة، والفنون، والحياة.

والنص بطبيعته بنية مشفرة –تحمل بين ثناياها معاني كثيرة عصية على الفهم- يستفز القارئ، ويدعوه للحفر في دلالاته، وفك شفراته عن طريق ممارسة القراءة السيميائية التي تعتمد على "إجراءات نقدية محكمة لها خصائصها المعينة في التأويل، لكشف البنيات العميقة، وربط صريح النص بباطنه"، وهي إجراءات جعلت النقاد السيميائيين يطلقون "العنان لحرية القراءة بحثا عن النسق المتخفي وراء الإشارات أو الأنظمة الدلالية للشفرات والعلامات ". ويمكن القول إن حرية القراءة – التي تميزت بها السيمياء المعاصرة – قد فتحت مجال الإبداع للقراء.

وبمعنى آخر أصبحت القراءة السيميائية تمثل إضافة وإثراء للنص المبدع، وذلك من خلال تفجير المعاني، والكشف عن الدلالات المستورة؛ حيث يتأسس مبدأ القراءة فيها على "إطلاق الإشارات كدوال حرة، لا تقيدها حدود المعاني المعجمية، ويصير للنص قرائية إبداعية تعتمد الطاقة التخيلية للإشارة في تلاقي بواعثها مع بواعث ذهن المتلقي، ويصير القارئ المدرب هو صانع النص"، ومن هذا المنطلق يشتغل القارئ على دال حاضر، ومدلول غائب فيقوم بفك "الرموز التي يتلقاها بواسطة الرموز التي يمتلكها في ذهنه"، ويتعامل معها وفق ما يمتلكه من مكتسبات ومخزون ثقافي، واجتماعي، وديني، وسياسي...الخ.

وهنا تبرز كفاءة القارئ، وتظهر براعته، ومدى قدرته على إنتاج إبداع ثان يعادل، أو يفوق الإبداع الأول؛ لأن القراءة من هذا المنطلق تعتبر "نشاط سيميائي باني لدلالة النص" بحيث يلعب القارئ دورا رئيسيا في إعادة إنتاجه.

وتجدر الإشارة – في هذا السياق- إلى أن حرية المؤول السيميائي لا تكمن في تشكيل المعنى، وصنعه بل في العثور عليه من خلال الاعتماد على الطرق المتاحة له (النحوية، الدلالية ...الخ)؛ فهو لا يستطيع أن يضفي أي دلالة يشاء على النص، ولكنه يستطيع إضفاء كل الدلالات المرتبطة بالنص، ومن ثم عليه أن يكون قادرا على التعامل مع الدلالات ليستطيع مقاربة العمل الإبداعي.

وقد وضع شولز Scholes شرطان لقراءة النص:

1- الشرط الأول يتعلق بوجوب معرفة التقاليد الجنسية، أي مراعاة السياق الفني داخل الجنس الأدبي.
2- أما الثاني فيكون من خلال الاعتماد على عوامل ثقافية (مهارات) لأن "القارئ مطالب بقراءة باطن النص مثلما يقرأ ظاهره وذلك كي يتمكن من تخيله، ومن ثم

تفسيره تفسيرا سيميولوجيا إبداعيا" بحيث تمكنه تلك العوامل الثقافية من استحضار العناصر الغائبة.

أما أوتين (Otten) في دراسته المعنونة بـ "سيميولوجيا القراءة" – حسب ما ورد في كتاب "السيمياء العامة وسيمياء الأدب" "لعبد الواحد المرابط" -، فيرى بأن القراءة تتم انطلاقا من ثلاثة عناصر هي:

1- النص: على اعتبار أنه موضوع للقراءة يحمل دلالات ينبغي تأويلها، بحيث يرصد أوتين نوعين من المواقع في النص هما:

1-1- مواقع اليقين: ويعتبرها مرتكزات لبناء التأويل.

2-1- مواقع اللايقين (الشك): وتشمل الرموز الغامضة التي ينتج عنها تعدد التأويلات.

2- **القارئ:** حيث " ينطلق القارئ (بصفته نصا) من معارفه وشفراته ورغباته ليقوم برد فعل اتجاه النص الموضوع للقراءة، وتكون رد الفعل هذا هي "التأويل النهائي" "

3- **العلاقة الناتجة عن لقاء النص والقارئ:** وهو أهم عنصر بالنسبة إليه حيث يحدده من خلال مرحلتين:

3-1- مرحلة "اختيار أرضية دلالية" والربط بينها، وبين ما يرد في النص.

3-2- مرحلة "عمليات تحويل النص في اتجاه الفرضية والأرضية الدلاليتين".

من خلال أطروحة أوتين يتبين لنا أنه ركز على عملية القراءة، وارتباطها بالتأويل من خلال فرضيات أولية يطرحها القارئ إما يقر بها، أو يتراجع عنها؛ وذلك حسب استجابة النص لها.

يتضح لنا – من كل ما سبق ذكره- أن هذا النوع من القراءة النقدية يعمل على إعادة إنتاج النص الإبداعي وبنائه؛ من خلال البحث في الدلالات الممكنة. كما أنه يسعى "إلى تشتيت الرؤى وتفجير المرجعيات محاولا استنطاق المعطيات من خلال قراءة أو عدد من القراءات" التي تعمل على فك شفرات النص محاولة الوصول إلى الدلالات الخفية التي لم يصرح بها. فيعتمد القارئ على آليات تمكنه من مقاربة مختلف النصوص، على اعتبار أنها علامات (لغوية/ غير لغوية) حبلى دلاليا بحيث تتوالد الدلالات، وتتنامى كلما تعددت القراءات.